المحاضرة الثالثة: مفهوم السياق (قراءة في المفهوم العربي والغربي)

أهداف المحاضرة:

الهدف الخاص:

- أن يحيط الطالب بمفهوم السياق في الثقافتين العربية والغربية

الأهداف الإجرائية:

- أن يوضّح الدّافع العربي للبحث السياقي
- أن يبيّن التوسيع البحثي الذي ركز عليه الغربيون.

تمهيد:

لعلّ من أدق التّعاريف التي أحاطت باللّغة ما أكده "ابن جني" في كونها: "أصواتاً يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، لتحمل المتتاليات الصّوتية طابع التّدليل حينما ترتبط بما يؤكده الواقع المعاش فيه، فالمداليل المشار إليها هي وليدة اتفاق الجماعة اللّغوية التي تضبط تنسيقها وتفتح مجال التّداول والاستعمال للأفراد. ومن ثمّ تكون اللّغة: "النّظام المركزي الدّال في بنية ثقافيّة بشكل عام"[2]. إنّ الدّلالة (signification) في أصلها تلازم بين الصّورة اللّفظية وما يعبّر عنه التّصور الذهني لإعطاء معنى يُخرِج الغامض إلى الوضوح والمجرّد إلى المحسوس. إنّها "كون الشّيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشّيء الأوّل هو الدّال والثاني هو المدلول"[3]، وهذان المركّبان -الدّال والمدلول- لا يمكن بأيّ حال الفصل بينهما، "فكل شيء إنّما يتمّ بين الصّورة السّمعية والتّصور"[4]، كما أنّ مفهوم الدّلالة يختلف عن مفهوم المعنى ذاته إذ إنّ الأخير لا يمثّل سوى جزءا منها؛ فإذا كان المعنى (sens) مرادفا للمدلول (signified) فإنّ الدلالة هي العلاقة الرّابطة بين كل من اللّفظ ومعناه، أي بين الدّال (signifier) وبين مدلوله، وهنا يأتي دور السياق ليحدّد الدلالة.

إذ يعدّ "السّياق context" أحد أهم مباحث علم الدّلالة الحديث إذ يعتمد عليه في تحديد المعنى الدّقيق للكلمات والتراكيب، ذلك أنّ تحليل أي نسيج لغوي يفرض الإحاطة ولو نسبيا بالمرجعيات المعرفية الثقافية خصوصا وأنّ اللّغة نظام بطبيعة مؤسسة، أي أنّه يُنتج في بيئة ثقافية خاصة واستحضاره يعد هاما لدى الباحثين كونه قرينة أساسية للترجيح بين المعاني، فلو احتملت الكلمة معنيين أو أكثر احتكم إليه كي يفصل في اللبس، ومن ثمّ اعتبر السّياق هو العمدة في علم المعنى والحجر الأساس في فهم النظام اللغوي الثقافي .

فالأصوات لا تحمل معانيها في ذاتها، إنّما تحملها بتآلفها مع بعضها البعض لتركّب بنية صوتيّة ترسم حدود الكلمات والجمل، والمحيط الصّوتي الذي تدور فيه هو الذي يعمل على تنظيم ترتيبها من خلال الموقع الذي يأخذه كل صوت داخله، لأنّ للصّوت وظيفة دلاليّة يؤدّيها في تركيبه للكلمات. حيث يؤكّد الباحث "محمود عكاشة" هذه النّقطة بقوله: "وأرى أنّ المعاني لا تكون من الأصوات وحدها، بل من وضعها في ترتيب معيّن، فالمعنى من الصّيغة التي تبنى منها الكلمة، فاختلاف ترتيب أصوات الكلمة يعقبه اختلاف المعنى نحو

---

[1] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة، بيروت، ج1، ص33.

[2] نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998، ص178.

[3] الجرجاني الشريف، التّعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، 1978، ص109.

[4] فردينان دو سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي، مجيد النصر، ص139.

موضعها في التّركيب، والسّياق الذي تأتي فيه، وعلاقتها بما جاورها من لفظ، ولكنّ النون وحدها ليس لها معنى في كلمة جنّة، وكذلك الجيم، ونظم أصوات الكلمة لا يقوم على معنى، فمجيء النون بعد الجيم أو ترتيبها كذلك ليس عن معنى، لأنّ الاصطلاح على هذا التّرتيب هو الذي يؤكّد هذا المعنى لهذا اللّفظ"[5].

وهذا يدل على أنّ "معظم الكلمات في اللغة متضمنة في سياقات خاصة معينة، ولكن ذلك لا يمنع من وجود كلمات تفتقر غلى دعم سياقي تستوقف المرء للتساؤل عن معانيها المحددة"[6]، والإجابة عن هذا التساؤل يفرض الإحاطة بالظروف الخارجية المحيطة بهذه الكلمات ذلك أنّ الكلمة تحمل معنى معجميا وآخر وظيفيا فالمفردة اللغوية لا تفهم منعزلة عن السياق، ويقول أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم: "معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "[7]، وفي هذا توضيح لمعنى السياق اللّغوي فالوحدات اللغوية لا يكون لها معنى إلا إذا وُضعت في سياق لغوي ملائم تتّحد فيه مع بعضها البعض .

كما يوضّح الباحث "علي زوين" الفرق بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي قائلا: "للسياق أهمية كبيرة في تحديد المعنى وتوجيهه، ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على أكثر من معنى واحد، فالذّي يحدّد هذه المعاني ويفصلها هو السّياق في مورد النّص، لذلك نلاحظ أنّ اللّغويين يصفون المعنى المعجمي للكلمة بأنّه متعدد ويحتمل أكثر من معنىً واحد، في حين يصفون المعنى السياقي لها بأنّه واحد لا يحتمل غير معنى واحد"[8]، وهنا توضيح بارز لأهمية السّياق في قدرته على تحديد المعنى وما المشترك اللفظي إلا ظاهرة سياقية معجمية ذلك أنّه مهما تعدّدت معاني الكلمة يفرض السياق معنى واحدا ووظيفة واحد تؤديها.

لذا المعنى الدلالي هو ما تولّد من الدّراية بجوهر الكلمات المتعلقة بالارتباط الدّاخلي بالخارجي والارتباط النظامي الكلّي، فهذا البحث لا يكون بحثا عمّا بين الكلمات والجل فحسب إنّما يكون مساءلة الداخل للخارج؛ أي محاولة إيجاد الصّلة بين المقال والمقام، "وهذا يذكرنا بالمستشرق الذي سمع أحد الدّراويش في

---

[5] التّحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دراسة في الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2005، ص32. كما تناول هذا الباحث البعد الصوتي في كتاب ابن جني، فقد وجد الأخير أنّ هناك صلة بين بعض الأصوات وبين ما ترمز إليه، وأوّل ما حاداه بهذا الاكتشاف تسمية بعض الأشياء بأصواتها كالخازباز لصوته والبط لصوته ونحو حاحيت، وعاعيت إذا قلت حاء، وعاء... ينظر: المرجع نفسه، ص20.

-وقد تحدّث الباحث "صائل رشدي شديد" عن القيمة الدلالية التي تحققها التشكيلات الصوتية المتعددة "فائتلاف الأصوات بالطّرق المختلفة والممكنة ضمن نظام صوتي ما وتبعا لقواعد كلّ لغة، يمثّل دلالة قوية على أنّ مثل هذا الائتلاف الصوتي، يحمل دلالة معينة". عناصر تحقيق الدلالة في العربية، دراسة لسانية، عالم المعرفة، ط1، 2004، ص50.

[6] علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص94.

[7] أحمد مختار عمر، علم الدلالة،عالم الكتب، القاهرة، 1998، ط5 ص ص68، 69.

[8] علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص185

إحدى طرقات القاهرة يصيح "مدد !" وكان المستشرق يعرف المعنى المعجمي للكلمة ولكنّه لا يعرف ما وراءها من "مقام" . ولذلك استفسر: "أيّ نوع من المدد يريده ذلك الرجل؟ "[9]. إذا، "ينبغي للباحث الدلالي أن يعير أهمية لما يسمى ب"سياق الموقف"، فللسياق موقف حقيقي دال على المعنى المباشر حين يحدث فيه النطق ، وموقف آخر أكثر من السياق الحقيقي عمقا، وهو الخلفية الثّقافية المرتبطة بالكلمة، وربما القضايا التاريخية والنفسية المتعلقة بها"[10].

إنّ النّظام اللّغوي يتحقّق من الرّوابط السّياقية والقرائن المقاميّة، وهذا النّظام من منظور علم الدّلالة يقبل التبدّل كلّما تبدّل سياقه، خصوصا وأنّ "الأساس الذي يقوم عليه علم الدلالة هو (المعنى)، فمعنى الكلمة أو الجملة هو الذي يخضع للتحليل الدقيق، وسؤالنا عن المعنى ليس البحث عنه كيانا مستقلا أو كيانا تمتلكه الكلمات، إنّما هو فهم لماهية الكلمات والجمل؛ أي كيف تكون هذه الكلمات والجمل ذوات المعنى"[11]، ولأنّ المعنى هو أقصى ما يبحث عنه الباحث الدلالي اعتبر السياق ركيزة التحليل الدلالي.

بذا نجد أنّ السّياق لا يقتصر على الجانب اللّغوي فحسب إنّما يتعلّق أيضا بالجانب الخارجي الذي يساهم بشكل كبير في تحديد المعنى الدلالي لذا نجد أنّ المعنى لا يتغيّر من التركيب اللغوي فقط بالإبدال بل يتغيّر أيضا حسب الثّقافة التي تحتويه، لذا البحث في الدلالة هو بحث في الثقافة بشكل أساسي وكيفية تبلور الرؤية الخاصة للعالم، ومن ثم المعنى الدلالي المقصود هو المعنى اللّغوي والانعكاس الاجتماعي في التعبير عن الموجود بطريقة خاصة، فالرؤية الخاصة بمجتمع تختلف عن غيره، وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ السّياق الثّقافي مهم جدا في التّحليل الدّلالي ليرسم لنا المعالم الخاصة بمجتمع معيّن في زمن ومكان محددين وهذا ما يؤكده علم اللغة الاجتماعي: "أفضل سبيل إلى دراسة المعنى أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر"[12].

وقد أدرج "أحمد مختار عمر" تقسيما رباعيا للسياق وضعه k.Ammer تكفّل بشرحها برؤية موضوعية دقيقة، يشمل هذا التقسيم:

1. السياق اللغوي: Linguistic context
2. السياق العاطفي:emotional context

---

[9] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، القاهرة، 1994، ط1، ص339.

[10] علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص97، 98.

[11] المرجع نفسه، ص90.

[12] هدسون، علم اللغة الاجتماعي، تر: محمود عياد، عالم الكتب، 1990، ط2، ص119.

3. سياق الموقف:situation context

4. السياق الثقافي:cultural context .[13]

يعبّر السياق اللغوي عن ارتباط الوحدات الدّلالية مع بعضها البعض ذلك أنّه لا يمكن كشف الواحدة منها دون ملاحظة ارتباطها بالوحدات الأخرى" ومن أجل تركيزهم على السّياقات اللّغوية التي ترد فيها الكلمة وأهمية البحث عن ارتباطات بالكلمات الأخرى نفوا أن يكون الطريق إلى معنى الكلمة هو رؤية المشار إليه أو وصفه أو تعريفه"[14]؛ وهذا يعني أنّ السّياق اللغوي يعبّر عن الجانب اللّغوي الدّاخلي والتّركيز على القواعد التركيبيّة والعلاقات مابين الكلمات باعتبارها أساس بناء الجملة أو النّص وبالتّالي اختلاف المعنى يكون بالنظر إلى اختلاف توزيع الكلمات وإبدال بعضها مكان بعض.

أمّا السّياق العاطفي فيحدّد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا فكلمة (يكره) العربية غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى، في حين يعني سياق الموقف، الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة مثل استعمال كلمة "يرحم" في مقام تشميت العاطس "يرحمك الله" (البدء بالفعل)، وفي مقام الترحم بعد الموت: "الله يرحم" (البدء بالاسم) فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة، وقد دلّ على هذا السياق الموقف إلى جانب السّياق اللّغوي المتمثل في التقديم والتأخير.وأمّا السياق الثقافي فيقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلمة "عقيلته" تعدّ في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميّزة بالنسبة لكلمة "زوجته" مثلا[15].

وإن كان K.Ammer قد قسّم السياق إلى ما تمّ ذكره فإنّ بعض الباحثين يكتفون بالتقسيم الثنائي له أي السياق اللغوي والسياق غير اللغوي بين المقال والمقال أو الظروف الخارجية التي تركّب فيها المفردة أو الجملة أو النظام اللغوي عامة.[16]

5. السياق التداولي:

تبيّن لنا مما سبق أنّ السياق يؤدّي دورا كبيرا في التحديد الدلالي، ذلك أنّ المعنى في المنهجية الدلالية يتم الحصول عليه عبر تطبيق إجراء البحث السياقي في جانبيه اللغوي وغير اللغوي؛ ولسنا في هذا المستوى

---

[13] أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص69.

[14] المرجع نفسه، ص69.

[15] ينظر: المرجع نفسه، ص71.

[16] ينظر: صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص382.

بصدد البحث عن المعن المعجمي المجرّد، بل عن ذلك المعنى الذي يربط اللغة بالثقافة والعالم، وينزّل المادة اللغوية إلى بيئتها ونضنها الأصلي، بغية الكشف عن أبعادها الدلالية.

جدير بالذّكر في هذا المبحث أن نفرّق بين السياق الدلالي والسياق التداولي كي لا يحدث اللبّس، إنّ السّياق في المنهج الدلالي يتعلّق بالقوانين الخاصّة التي تجعل اللّفظ يحمل معناه لا المفهوم الاستعمالي للكلام - المفهوم البراغماتي النّفعي-، ذلك أنّ البعد الدّلالي للألفاظ والتّراكيب بعيد كل البعد عن القصديّة (intentionnalité) والجانب الاختياري، فلكلٍّ بيئته المفهوميّة الإجرائيّة، والمفهوم الاجتماعي للمعنى يتعلّق بالجانب اللّغوي المشترك بين أكبر عدد من الأفراد في صورته الآنيّة معبّرا بكلّه عن الرّؤية الثّقافيّة؛ لأنّ المعنى الدّلالي هو الكاشف عن الأبعاد اللّغوية الثّقافية في الأصل وما البراغماتيّة إلا توسّع بحثي ما بعد دلالي تصوّب اهتمامها أكثر على كيفيّة الاستعمالات الكلاميّة في صيغتها الفرديّة ومقاصدها من الاختيارات اللّفظية.

إنّنا نجد أنفسنا أمام التّوجيه الأول الذّي وضّحه "دي سوسير" في بيانه لموضوع الدّراسة وتفريقه بين ثنائية اللّغة والكلام خصوصا وأنّ اللّغة نظام من العلامات اللّغوية المتعارف عليها، والعلاقة فيها بين الدّال والمدلول اعتباطيّة غير معلّلة، ما يؤكد أن اللّغة في ذاتها اجتماعية تفرض الكمّ اللّانهائي من الكلمات على الفرد المستعمل الذي يعجز في كثير من الأحيان على الإبدال والإخلال بهذا النّظام من جميع مستوياته.

هذه الصّعوبة التي طالت الباحثين في التّفريق بين المفهوم الاجتماعي للّغة، جعلت الباحث "صلاح الدّين زرال" يتساءل عن المقصود بالمعنى الاجتماعي؟ وقد أجاب عن ذلك قائلا: " إنّ أوّل ما يجلب انتباهنا هو الرّأي الذي ربط بداية المفهوم الاجتماعي للّغة، وقد بدأ بالظّهور مع الفكر السوسيري الذي يرى أنّ اللّغة اجتماعيّة بطبعها، وعلى ذلك أسّس معظم الباحثين آراءهم في اصطلاحيّة الدّليل، ذلك أنّهم لم يراعوا أساسا طبيعة الموضوع الذي تطرّق إليه سوسيرsaussure، فقد أكّد من البداية أنّ موضوع اللّسانيّات إنّما هو اللّغة، واتّضحت الرّؤية بشكل جليٍّ، فإذا قلنا باصطلاحية الدّليل فذلك يقودنا حتما إلى التّأكيد بأنّه ربط اللّغة بالواقع، وهذا ما نفته البنيويّة، لذلك فإنّ المفهوم الاجتماعي للّغة يستحيل إذا مفهوما مرتبطا بالبناء اللّغوي وهو ذلك القدر المشترك من المعرفة اللّغوية بين أفراد المجتمع"[17]، إنّ هذا الرأي يضعنا في صلب ثنائية "دي سوسير" اللغة والحكم الاجتماعي فيها والكلام واستعماله الفردي خصوصا وأنّ البنيويّة

[17] ينظر: صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ص 373، 372.

قد نفت المرجع الخارجي أو ما يشير إلى واقع واكتفت بالنّظم اللّغوية وبالجانب العرفي النّاتج عنه ارتباط الدّال بالمدلول.